التربية الصوفية في الحكم العطائية

للأستاذ السيد محمد عيد الشافعي

يقول ابن عطاء الله

(لا يكن تأخر أمد العطاء مع الالحاح في الدعاء موجباً لياسك ، فهو ضمن لك الاجابة فيما يختاره لك. لا فيما تختاره أنت لنفسك وفي الوقت الذي تريد ، لا في الوقت الذي تريد)

كثير من الناس يطلبون من الله عز وجل ما يعتقدون فيه صلاحهم ، فإن تأخرت عليهم الإجابة إلى الصور التي يطلبونها استولى على نفوسهم اليأس وتركوا الدعاء قائلين : دعونا فلم يستجب لنا ، فيكون ذلك القول سببا في حرمانهم من الاجابة ، كما يقول رسولنا صلى الله عليه وسلم « يستجاب لأحدكم مالم يعجل ، فيقول : دعوت فلم تستجب لي » : والأمر في هذا يحتاج إلى تفصيل وفهم ،

يقول الله تعالى : « ادعوني أستجب لكم » . فهو قد أذن لك بالدعاء إلا ليفيض عليك الاجابة : طواعية تظهر عن كرم نفساني تحنانا يضطر ، فالمجيب : هو المقبل عليك بإدخال المسرة ، مالم تتنافى مع قانون من قوانين الحكم القائم على مراعاة الاصلح ، تفضلا منه لا وجوبا عليه . ولما أن كانت الامور منها ما يكون صورته خيرا وفي باطنها الشر ، ومنها ما يكون في صورتها شرا وفي باطنها الخير ، والانسان عاجز عن إدراك الامر في تمسمين على حقيقته ، فتراه يطلب ما صورته خير وقد يكون في باطنه

الشر ، وتراه يتعوذ مما صورته شر ؛ وقد يكون فى باطنه الخير . قال تعالى (وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) . ولما أن كان الحق تبارك وتعالى لا يفعل بعبده إلا ما هو خير له فقد اقتضت حكمته سبحانه ألا يستجيب للدعاء وفق مراده إلا إذا كان فى ذلك الخير للداعى ، أما إذا لم يكن فيه خير له فيدخر لعبده — كرما — طلبته لحين لقائه ، أو يصرف عنه من السوء مثلها . وقد نطق بذلك معلم الخير ورسول الهدى محمد صلى الله عليه وسلم فقال . (ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة إلا آتاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن تعجل له دعوته (أى فى الصورة التى يطلبها) وأما أن تدخر له يوم القيامة ، وأما أن يصرف عنه من السوء مثلها (فقالت الصحابه رضوان الله عليهم : إذا نكثر يارسول الله ؟ قال (: الله أكثر). وهذا نص فى الأمر ، إذ أن الآية مطلقة فى قوله (أستجب لكم).

ولا شك أن المتفهم للامر يتبين له أن الاجابه المطلقة حاصلة لا محالة ، كما ورد فى عموم الآية ، وإن لم تتعين الاجابة فى الصورة التى يطلبها الداعى . فهو إذاً ضمن لك الاجابة فيما تختاره لك لا فيما تختاره أنت لنفسك . ثم مما اقتضته حكمة ربك سبحانه أن تحصل الاجابة فعلا ، إلا أنها فى الوقت الذى يريد ، لا فى الوقت الذى تريد ، كما حدث لمن اصطفاه الله برسالته وكلامه وأخيه هارون عليهما وعلى نبينا السلام حينما دعوا على فرعون وقومه فقالا (ربنا اطمس على أموالهم) إلى آخر الآية ، فقال تعالى : (قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون) والثابت أنه كان بين قول الله لهما قد أجيبت دعوتكما وبين تحقق الدعوة فعلا أربعون سنة ، وما ذاك قطعا إلا لحكمة يعلمها مدبر الكائنات ، والذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . وإن دقت الحكمه عن إدراك البشر فليس معنى ذلك أنه لم يكن لله حكمة فى فعله ؟ وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن للدعاء أحكاما وآدابا يجب على الداعى مراعاتها .

(أولا) أبان لنا رسول الله ﷺ وسلم أن حضور القلب فى الدعاء شرط فى الاجابة فقال : « القلوب أوعية ، وبعضها أوعى من بعض ، فاذا سألتم الله عز وجل أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالاجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه » . وإذا فحضور القلب شرط ، ومتى انتفى الشرط انتفى المشروط .

(ثانيا) الترصد للاوقات الشريفة التى أخبر عنها رسول الله ﷺ . كيوم عرفة وساعة الجمعة ووقت السحر ودبر الصلوات المكتوبات .

(ثالثا) أن يكون الداعى مستقبل القبلة . لما روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة . ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس .

(رابعا) أن يرفع يديه فى الدعاء ، وأن يضم كفيه ولا يردهما حتى يمسح بهما وجهه . وذلك لما روى عن عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا مد يديه فى الدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه . وما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى عليه وسلم كان إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلى وجهه .

(خامسا) أن يبدأ الدعاء بالحمد والثناء على الله تعالى ، وأن يختمه بالصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك لما روى عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه أنه ما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح دعاء إلا استفتحه بقوله « سبحان ربى الأعلى الوهاب » وما روى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سألتم الله عز وجل حاجه فابتدئوا بالصلاة على . فان الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضى أحداهما ويرد الأخرى » .

(سادسا) أن يكون منخفض الصوت بين المخافتة والجهر ، لما روى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه حيث قال : « قدمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ، ورفعوا أصواتهم ، فقال النبى صلى الله عليه

وسلم :). يأيها الناس ! ! إن الذى تدعون ليس بأصم ولا غائب ، إن الذى تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم) :

(سابعاً) ألا يتكلف السجع فى الدعاء ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (إياكم والسجع فى الدعاء ، حسب أحدكم أن يقول : اللهم إنى اسالك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل : وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » .

(ثامنا) أن يعظم الرغبة ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة ، فان الله لا يتعاظمه شىء » :

(تاسعاً) أن يعزم المسألة وهو على يقين من الاجابة ؛ لقوله صلوات الله عليه (لا يقل أحدكم إذا دعا : اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، ليعزم المسألة فانه لا مكره له) .

(عاشرا) أن يتحرى الحلال فى مأكله ومشربه وملبسه ، لقوله صلى الله عليه وسلم) يكون الرجل مطعمه حراما وملبسه حراما فأنى يستجاب له) .

(الحادى عشر) أن يلح فى الدعاء ولا يستبطىء الاجابة ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (يستجاب لاحدكم مالم يعجل فيقول . دعوت فلم يستجب لى ، فإذا دعوت فاسأل الله كثيرا فإنك تدعو كريما) .

(الثانى عشر) أن يحمد الله عز وجل ، سواء تبين الاجابة على صورة ما أراد أو لم يتبين ، لقوله صلوات الله عليه : (إذا سأل أحدكم ربه مسألة فتعرف الإجابه فليقل : الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . ومن أبطأ عنه شىء من ذلك فليقل الحمد لله على كل حال » .

فاذا وفق العبد للتمسك بهذه الآداب المحمدية فى دعائه تأسيا برسول الهدى صلوات الله عليه ، وكان مضطرا فى دعائه اضطرارا حقيقيا فلا بد له من الفوز بثلاث :

الأولى ـ شرف إظهار الفاقة والخضوع لله فى الدعاء .

الثانية ـ ثواب الاتباع للرسول صلوات الله عليه فى قوله وفعله .

الثالثة ـ حصول الاجابة على صورة يعلم الله جل شأنه أن فيها الخير له ، وليس بعد اختيار الله لعبده خير ، فان الله بالناس لرءوف رحيم ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، ويهدى من يشاء إلى سواء السبيل .